

موقف النخب الجزائرية من مقاومة محمد بن عبد الكريم الخطابي

1926 - 1921

The Position of the Algerian Elite Against the Resistance of the Moroccan Rif

1921-1926

عز الدين بن سيفي *

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة خنشلة - (الجزائر)

azzedinebensifi@gmail.com

تاريخ القبول: 2024./01./28

تاريخ الاستلام: 2023./06./03

الملخص: نحاول من خلال هذا البحث التاريخي، تقصي مواقف الطبقة المثقفة الجزائرية من حرب الريف المغربية (1921-1926)، بقيادة

الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، حيث تطرقنا فيه بعد التعريف بمقاومة أهل الريف للاحتلال الإسباني والفرنسي، إلى تقصي ملامح وصور، وأصداء هذه المقاومة، أولاً عند عموم الشعب الجزائري، الذين كان يتابع باهتمام وشغف، أخبار الثورة الريفية، كما تتبعنا بالعرض والتحليل مواقف أهم زعماء ورموز الحركة الوطنية الجزائرية، والمتنورين وغيرهم من المفكرين، والمصلحين، مبرزين أهم صور التضامن والتآخي، التي عبر عنها هؤلاء في ما كانوا يكتبونه من مقالات في الجرائد، ويلقونه من محاضرات في منابر السياسة المفتوحة، والعرائض المطلوبة، وقصائد وأشعار ملحونة وموزونة، تشد عزم الريفيين وتشجذ همهم، وتقوي شكيمتهم، كما بينا بعض مواقف المبراطين، والأئمة، وشيوخ الطرق الصوفية، من المقاومة الريفية. والتي تعبر كلها على ذلك الموقف المشرف الذي وقفته النخب الجزائرية من مقاومة إخوانهم الريافة للمحتل.

كلمات مفتاحية: موقف.. المقاومة.. الخطابي.. المثقف.. الجزائري.

Abstract: Through this historical research, we are trying to investigate the positions of the Algerian intelligentsia regarding the Moroccan Rif War (1921-1926), led by Emir Ibn Abdel Karim Al Khattabi, where we touched upon it after introducing the resistance of the countryside to the Spanish and French occupation, to explore the features, images, and echoes of this resistance. Firstly, among the Algerian people, who followed with interest and passion the news of the rural revolution, and we also followed, by presentation and analysis, the positions of the most important leaders and symbols of the national movement, the enlightened and other thinkers and reformers, highlighting the most important images of solidarity and brotherhood that they expressed in what they were writing articles in newspapers. And they gave it from lectures on open political forums, and composed and weighed poems and poems that strengthen the resolve of the rural people and sharpen their motivation, and strengthen their orthodoxy, as we explained some of the positions of the Almabrabitin, imams, and sheikhs of the Sufi orders, from the rural resistance.

Keywords: Algérien, Échos, Intellectuel, Marocain, Résistance, Riffains.

● مقدمة:

إنّ المتأمل في مواقف الشعوب المغاربية من فواجع الدّهر، وشدائد الأزمنة، ليقف عند ذاك السّجل الحافل بصور التّضامن والتّآزر بين هذه الجماهير، في الرّزايا والحن، حيث عبرت فيها دائماً على متانة أواصرها، وعراقة مقوماتها المشتركة، التي جمعتها منذ عهد سحيق، من أواخ، ولغة، ودين، وعادات، ودماء، وغيرها من وشائج وروابط تشدّ بنيانها المغاربي، الذي عان وما يزال من تنافر القمم، ولعلّ في مواقف الطّبقة المثقفة المغاربية من محنة الاستعمار خير دليل، فبالأمس دشنت نخبة المغرب الأقصى مواقفها من نكبة الجزائر مع الاحتلال الفرنسي 1830، بالاستنكار، وخلدت في سجل التّاريخ صفحات مشرفة ومشرفة، من التعاطف، والتّضامن اتّجاه إخوانهم في مقاومتهم للمحتل. وبعد ثمانية عقود من الاحتلال الفرنسي للجزائر، سقطت مراكش في شرك الحماية المزدوجة الفرنسية الإسبانية، سنة 1912، واندلعت شرارة المقاومة في كل الجهات، فكانت ثورة الرّيف تحت لواء الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، أعظمها وأقواها، فرغم المآسي والآلام التي كان يعيشها الشعب الجزائري، إلا أنه هو الآخر دَوّن صفحاتٍ ثمّالة بل يزيد، من التّآزر، والتّلاحم، والتّعاطف، اتّجاه إخوانه المغاربة في محنتهم مع الاحتلال، ومن بين هذه الصّفحات موقف النّخبة الجزائرية من مقاومة محمد بن عبد الكريم الخطابي، والتي اخترنها كموضوع لهذا البحث، وذلك من أجل تقصي وتتبع أصداء هذه المقاومة في الأوساط المثقفة الجزائريّة، من علماء، وشيوخ زوايا، ومفكرين، وصحفيين، وشُعراء، وغيرهم من نخب الفاعلة في هذه الفترة (1920-1926). ولتحقيق هذه الأهداف نطلق من سؤال جوهري : كيف كان موقف النّخب الجزائرية من مقاومة محمد بن عبد الكريم الخطابي بالريف المغربي؟

1. لمحة عن مقاومة الرّيف المغربية :

بدأت المقاومة الشّعبية المسلحة في المغرب ضد الاحتلال الإسباني والفرنسي مباشرة بعد توقيع الحماية 30 مارس 1912م، حيث تعددت الجبهات المقاومة فيه، ففي الجنوب قامت الثّورة بتايفاليت بقيادة الشّريف السّمّالي، أمّا الوسط فقد كانت المعارك بفاس مشتتة بين الأهالي والمحتلين، وفي الشّمال الشرقي ثار بنو زناسن ضد الفرنسيين بوجدة⁽¹⁾، كما قاد الرّيسوني أيضاً الثّورة بالشّمال الغربي، أمّا الرّيف فقد نظّم الشّيخ محمد أمزيان الثّورة فيه، وكانت هذه الأخيرة ذات صيت وأثر، لاسيما أنّها حققت بعض الانتصارات العسكرية ضد الإسبان، وكانت منطلقات الشّيخ أمزيان الكفاحية تستند على التّعبئة الدينيّة، والاعتماد على شيوخ الزوايا، وعلماء ووجهاء المنطقة، ورغم أنّ المعارك توقفت بعد استشهاده في ماي 1912⁽²⁾، إلا أنّ روح الثّورة سرعان ما انتشرت في المغرب، بعد إعلان الأمير عبد المالك

¹ - أبو بكر القادري - مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية 1940/1930 - ج1 - دار النجاح الجديدة - الدار البيضاء - ط1 - 1992 - ص 31.

² - محمد علي داهش - المغرب في مواجهة الاحتلال الإسباني المنطلقات والأهداف - مجلة الفكر السياسي - العدد 13 14 - 2001 - ص 89.

الجزائري، الثورة ضد الفرنسيين سنة 1914⁽¹⁾، كما شهد العقد الثاني من هذا القرن اندلاع ثورة كبيرة في الريف⁽²⁾، بقيادة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي⁽³⁾.

1.1 عبد الكريم الخطابي قائداً للثورة :

تمتعت عائلة الخطابي باحترام وتبجيل قبائل الريف المغربية، المتشوقة للخلاص من حكم الإسبان أعداء الدين، وكان هذا الاحترام نابع من مكانة شيخ العائلة الفقيه عبد الكريم الخطابي والد زعيم الثورة الريفية، الذي استطاع أن يجمع كلمة القبائل، ويوحد صفوفها، لمواجهة العدو، بعد إعلانه الجهاد في سبيل الله ماي 1920م⁽⁴⁾، حيث التفت حوله الجماهير مستجيبةً لمحاربة المحتل، إلا أن المنية وافته وهو مرابطاً بتاغريست⁽⁵⁾، فبوع لابنه محمد قيادة الجيش، في أوت 1920م.

عمل الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي على تعبئة الجماهير مستنداً على المرجعيات الدينية والوطنية، وكانت منطلقاته خطياً ومواعظ عن الجهاد والتذكير بفضل، مستنداً بالقرآن الكريم والسنة النبوية. ولم يقف الأمير عند ذلك، فقد اهتم بتنظيم الجيش، وتدريبه، والاعتناء بتسليحه، كما وضع أسس جديدة لمواجهة الأعداء (محمد علي داهش، 2001، ص. 90)⁽⁶⁾، معتمداً على أسلوب الحرب الخاطفة التي تقوم على حرب الكمائن (العصابات)⁽⁷⁾. وكان من أولوياته أيضاً تنظيم شؤون الناس وتوحيد صفوفهم، حيث عقد مؤتمراً وطنياً في أمزورن، حضرته جميع الأطياف والأطراف الممثلة لقيادات إقليم الريف⁽⁸⁾.

2.1 المقاومة ضد الإسبان :

امتدت الحرب بين الريفيين والإسبان ما بين صيف 1921م إلى سنة 1925م، وكانت أول معركة بينهما في وادي أنوال⁽⁹⁾، والتي استطاع فيها الريافة بقيادة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي تحقيق أول انتصار، على الجيوش الإسبانية بقيادة الجنرال سيلفستر، حيث كان لطبيعة

¹ - أبو القاسم سعد الله- الحركة الوطنية الجزائرية 1900/ 1930- ج2- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط4- 1992- ص ص 224 230.

² - يحيى جلال- المغرب العربي الكبير في العصر الحديث وهجوم الاستعمار- ج3- دار النهضة العربية- بيروت- (د.ط)- 1981- ص 124.

³ - هو محمد بن عبد الكريم الخطابي المشهور بعبد الكريم الخطابي، ولد سنة 1882 بأجدير، وينتسب الخطابي إلى قبيلة بني ورياغل، ف يرجع نسب والده عبد الكريم الذي كان قاضي المدينة، إلى الخطابين الشرفاء من بويطات الريف الكبير، شب الأمير محمد في مدينة مليلة وترعرع في حجر والده الذي كان أستاذه الأول، حيث درس مبادئ العلوم عله، وأتم تعليمه الأولى في مدارسها، ثم سافر إلى فاس أين نال من مدارسها إجازة العلوم الدينية، ثم قفل راجعا إلى مليلة التي التحق بمدارسها الإسبانية، فأظهر فيها الأمير نبوغاً وتميزاً، فحاز على دبلوم مدارسها الثانوية في العلوم، ثم سافر إلى إسبانيا فالتحق بجامعة (شلمنكا) فحصل منها على شهادة الحقوق، ولما رجع إلى المغرب عين قائداً مدنيا لمدينة مليلة، ثم ما لبث أن أعلن ثورته على الإسبان الذين تحالفوا مع الفرنسيين للقضاء على ثورته، نفي سنة 1926، وفي سنة 1947 جدد نشاطه السياسي بمصر، توفي سنة 1963، ينظر: سيرة الأمير محمد عبد الكريم الخطابي بطل الريف ورئيس جمهوريتها- المطبعة السلفية- القاهرة، (د.ط)- 1924.

- نفس المصدر- ص 34.

⁵ - Pierre Fontaine- Abd-El-Krim origine de la rébellion nord-africaine - édition les sept couleurs- Paris- 1958- p20 .

⁶ - محمد علي داهش - مقال سابق - ص 40.

⁷ - رشيد الصالح- مرجع سابق- ص 49.

⁸ - محمد علي داهش- مقال سابق- ص ص 90 91.

⁹ - رشيد صالح- مرجع سابق- ص 49.

بلاد الرّيف عاملاً أسهم في تحقيق النّصر، وبخاصة أنّ الاسبانيين، كانوا يجهلون تضاريس منطقة الريف الوعرة، ويجهلون قوة الرّيفيين وعزيمتهم⁽¹⁾.

وكانت قوات الجنرال سيلفستر قائد الجيوش الإسبانية في يوم الواقعة، تتقدم في أقاليم بني ورياغل وهي لا تدري أنّ الريافة قد تخندقوا في شعاب الوادي، المؤدي إلى المدينة، حيث طوق الأمير الجيش الاسباني فجأة، وأكثر فيهم القتل حتى أباد منهم خلقاً كثيراً، (ألف قتيل حسب الرويات الأجنبية)⁽²⁾، كما غنم فيها 300 مدفع، و70 ألف بندقية، وكمية كبيرة من الذخيرة⁽³⁾، وثمانية ألف أسير⁽⁴⁾.

كانت معركة أنوال كارثة بالنسبة للإسبان، خلقت بينهم وبين الرّيفيين شرخاً عميقاً مليئاً بالدماء، وانطلاقاً من هذه المعارك وغيرها، استمد محمد بن عبد الكريم الخطابي شهرته، التي عملت في هذا الوقت على جلب المؤيدين من كل أنحاء المغرب، كما كان لهذه الانتصارات نتائج سياسية، تتمثل في قيام جمهورية الرّيف التي وطد أركانها الأمير، بعد مبايعته في فيفري 1922م⁽⁵⁾.

أمّا ما بقي من حرب بين الطرفين فقد كانت الكلمة فيها للرّيفيين، وقد تأثرت إسبانيا نفسها بهذه الانكسارات، فحدث فيها الكثير من الانقلابات، ونتيجة لذلك دخل الإسبان في مفاوضات لحفظ ماء الوجه مع الثوار، إلا أنّ المفاوضات تعطلت بسبب دخول فرنسا النزاع القائم في الرّيف⁽⁶⁾.

3.1 المقاومة ضد الفرنسيين :

كانت فرنسا زمن الحرب الرّيفية الإسبانية تقف ولو بشكل غير علني في صف محمد بن عبد الكريم الخطابي، ولكنها سرعان ما تخلت عنه، ولاسيما بعد الانتصارات العسكرية الباهرة التي حققها ضد الإسبان، حيث أصبحت تتخوف من تعاضم نفوذه بين القبائل المغربية، وهذا ما دفع، قائد القوات العسكرية الفرنسية بالمغرب، المرشال ليوطي، إرسال تقرير إلى وزير الخارجية يوم 27 فيفري 1925م، يحذر فيه فرنسا من تزايد قوة ونفوذ الأمير محمد بن عبد الكريم⁽⁷⁾، الذي ظل صدى انتصاراته مدوياً في المنطقة الفرنسية جنوب الرّيف، وعلى هذا الأساس تباحثت فرنسا وإسبانيا مسألة مصير الثورة الرّيفية، وخلصت المفاوضات إلى ضرورة التّحالف من أجل القضاء على الثورة⁽⁸⁾.

¹ - يحيى جلال - مرجع سابق - ص 130 .

² - محمد علي داهش - مقال سابق - ص 91.

³ - رشدي الصالح - مرجع سابق - ص 50.

⁴ - أحمد سكرج - الظل والريف في محاربة الريف - إعداد - محمد الرازي كنون - (د.ط) - (د.ت) - ص 27 .

⁵ - بوجعة أكرم - محمد بن عبد الكريم الخطابي ودوره في تحرير المغرب العربي - أطروحة دكتوراه في التاريخ - جامعة تلمسان - 2017 - ص 169.

⁶ - جلال يحيى - المغرب الكبير الفترة المعاصرة وحركات التحرير والاستقلال - ج3، الدار القومية للطباعة والنشر - الاسكندرية - (د.ط)، (د.ت) - ص ص 973 975.

⁷ - جورج سيلمان - المغرب من الحماية إلى الاستقلال 1912 / 1956 - ترجمة محمد المؤيد - مجلة أمل التاريخ والثقافة والمجتمع - الرباط - ط1 - 2014 - ص 39.

⁸ - محمد العربي المساري - محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن - المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء - ط1 - 2012 - ص 104.

أمّا الأمير محمد بن عبد الكريم، فقد كان متخوفاً من فتح جبهة مع الفرنسيين، إذ كان شديد الحذر في تعاملاته مع القبائل المتعاطفة من المنطقة الفرنسية، وكان المرشال ليوطي من جهته يدرك أنّ الثورة ستمتد إلى المنطقة الفرنسية مباشرة بعد هزيمة الإسبان، وعلى هذا الأساس تقدمت القوات الفرنسية إلى الشمال من وادي ورغة⁽¹⁾، أمّا محمد بن عبد الكريم ورغم أنّ اقتحمه للوادي لم يكن قراراً اتخذته عن طيبة خاطر⁽²⁾، إلا أنه كان حتمية لا مفر منها، ففرنسا كانت عازمة على وضع حد لهذه المقاومة التي بدأت تأخذ أبعاداً أكبر من حدودها السياسيّة، وخاصة وأنّ الثورة كانت أدنى ما تكون إلى الحدود الجزائريّة، التي كان فيها شعب حاقده على السياسة الاستعمارية يتابع الأحداث بكثيرٍ من الاهتمام، وهذا لنا فيه حديث.

ومن أجل التصدي لها، تحتم على محمد بن عبد الكريم الخطابي الخوض في حرب مع فرنسا التي امتدت أياديها الاستعمارية إلى منطقة نفوذه⁽³⁾، ومن جهتها خططت فرنسا لتحالف ثلاثي ضد الأمير، فمن جهة اسبانيا العدو الأول للثورة، وفرنسا العدو الجديد، والمخزن المغربي الذي أدخلته الدبلوماسية الفرنسية بدعوى أنّ الخطابي يريد الانقلاب على العرش، دخلت فرنسا مع الخطابي حرباً من أعنف الحروب الاستعمارية التي عرفت، بحيث تمر هذه الحرب بمرحلتين: الأولى من أفريل إلى جويلية 1925، حيث رجعت المهمة الرئيسة لمجهود جيش المخزن النظامي. والثانية امتدت أوت 1925 إلى غاية جوان 1926 لتتوصل فرنسا وحلفاؤها بصعوبة إلى القضاء على ثورة بن عبد الكريم الخطابي واستسلامه⁽⁴⁾.

2. موقف الجزائريين من المقاومة المغربية تحت لواء الأمير ابن عبد الكريم الخطابي :

1.2 موقف الشعب الجزائري :

عاش المغرب العربي الكبير تجارب وحدوية كثيرة على مر التاريخ، كما تجرعت جغرافيته مرارة التفرقة والتشردم في فترات أخرى، عبر فيها عن عدم تجانسه السياسي رغم تجانسه الاجتماعي، فظلت بذلك وحدته آمالاً تتجاوزها الاعتبارات السياسيّة بين أطرافه وأطيافه، إلا أنّ التاريخ لا يزال يحفظ لشعوبها مواقف مشرفة ومشرفة عبرت فيها عن أواصر الأخوة والتضامن، لتمحو بذلك صوراً مؤسفة من التخاذل والخيانة التي رسمها قادته وأولوا أمره، وتؤكد تكافل وتضامن الشعوب المغاربية فيما بينها في الرزايا والحن.

لقد شكّل اصطدام الأقطار المغاربية مع الاستعمار، بداية مرحلة جديدة حاسمة في تاريخ التضامن المغاربي، ورغم أنّ هذه المرحلة كانت خطيرة، إلا أنّها فتحت صفحة جديدة في تاريخ التلاحم بين شعوبه وأفراده، فبالأمس دشّن المغاربة موقفهم معبرين عن تعاطفهم وتضامنهم مع إخوانهم الجزائريين في محنتهم مع المحتل، ثم مقاومتهم للاستعمار.

¹ - نفس المرجع - ص 39.

² - نفس المرجع - ص 132.

³ - أحمد عبيد- التماثل والاختلاف في حركات التحرر المغاربية- ابن النديم للنشر- الجزائر- ط1- 2010 - ص 231 .

⁴ - نفس المرجع- ص 232.

ولما كانت الأيام دولٌ فقد سقط المغرب في شَرِكِ الحماية ليدوق المغاربة طعم الاستعمار، وهنا يستوقفنا سؤال ملح، عن موقف الشعب الجزائري من مقاومة المغاربة للاحتلال بقيادة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي.

لا شك أن ثورة الرّيف المغربية بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي كانت ملهمة لشعوب المغرب العربي الكبير، لما أحدثته من تداعيات على السّاحة العالمية آنذاك، ولا ريب أنها استقطبت حيزاً كبيراً من اهتمام الجزائريين المتلهفين إلى سماع أخبار ثورات الانعتاق من الاستعمار في أصقاع العالم، لاسيما بعد أن انطفأت جذوة الثورات الشّعبية في وطنهم الجزائر، تلك الثورات التي قدم فيها الجزائريون أروع صور التضحية والكفاح في مقاومة الاحتلال الدخيل.

ففي الوقت الذي كان فيه الرّيفاء يقدمون أحسن الصور في جهاد الأعداء، كانت أغلب المدن الجزائرية تتابع ما يديه المغاربة بقيادة الأمير المجاهد عبد الكريم الخطابي، من ضروب الشجاعة والإقدام، بروح من التعاطف، والتضامن، وكثيرٍ من الفرح والاستبشار، فتلمسان الواقعة على الحدود مع المغرب تلقت بشائر الانتصار في أنوال بالأفراح⁽¹⁾، وتشير إحدى التقارير الأمنية للسلطات الفرنسية في مدينة جيجل، أنّ السكان يتابعون أخبار الثورة، «... يتابع الأهالي بكثير من الحذر المسألة المغربية...»⁽²⁾، وفي تقرير آخر رفعه قائد الشرطة في مدينة تلاغ ضواحي سيدي بلعباس نهاية جويلية إلى السلطات الأمنية، مفاده أن الأهالي تجمهروا في مجموعات كبيرة لمنع قوافل من المجندين من التوجه إلى المغرب، وبالرغم من أن السلطات الفرنسية كانت تتعمد إخفاء بعض الحقائق، إلا أنّ التقارير أظهرت أن هناك تعاطفاً وتأيداً واضحاً من قبل الجزائريين لثورة الرّيف، ويظهر أيضاً مما تقدم أن الجزائريين أعلنوا عن تأييدهم وتعاطفهم مع ثورة الأمير ابن عبد الكريم الخطابي علانية دون خوف من انتقام السلطات الفرنسية.

وبالرغم أن بعض الكتابات حاولت أن تبين العكس في أن الجزائريين قاتلوا في صفوف الجيش الفرنسي ضد الثورة الرّيفية، مستغلين في ذلك عيوب المنهج السّردي، فالحقيقة التي تخفى عن بعض هؤلاء الكتاب - سامحهم الله-، أنّ الجزائريين ممن شاركوا مع فرنسا في حرب الرّيف، سيقوا قهراً وجبراً إلى جبهة القتال ضد إخوانهم المغاربة، حيث أجبرتهم السّلطات الفرنسية بفرض قانون التجنيد الإجباري⁽³⁾، الأمر الذي مكّن فرنسا من توفير جنود جزائريين نقلوا من الجزائر قهراً إلى المغرب، وفي المقابل لم يكن قائد الثورة في الرّيف يجهل ذلك فقد أشار الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي في الرّسالة التي وجهها إلى الجزائريين والتونسيين إلى ذلك: «... يا أيها المسلمون التونسيون والجزائريون

¹ - مصالي الحاج - مذكرات مصالي الحاج 1938/1898 - تر محمد المعراجي - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - (د.ط) - 2007 - ص 100.

² - M . kaddache - M . Guenaneche - « l'étoile nord-africaine 1926-1937 » - éd-office des publications universitaires - Alger - 2009- p,26.

³ - قانون التجنيد الإجباري: مرسوم أقرته السلطات الفرنسية في 03 فيفري 1912، وينص على تجنيد كل شاب جزائري بالغ من العمر ثمانية عشرة سنة لمدة ثلاثة سنوات، و بدأت معاملة ترتسم منذ 1907 على وجه التحديد حيث طرح ميسمي مشروع تجنيد الأهالي إلزامياً، من طرف وزير الحرب ميلي ران Millerand الموجه إلى رئيس الجمهورية ألبار فالبار Foliaire حيث كان ميلي ران Millerand يرى أن تواجد فرنسا في المغرب يجعل مسألة التجنيد الإجباري أمراً لا غنى عنه، من خلال إصدار هذا القانون الذي نشر في جريدة الميشر يوم السبت 02 مارس 1912 واحتوى القانون على 30 مادة مقسمة على 04 أبواب للإطلاع أكثر في قانون التجنيد ينظر: Le Ministre de la guerre, Rapport au Président de la République Française, 04 Mars 1912, Samedi 02 mars 1912, Mobacher, N. 5436.

أن الأمر الذي يشق علينا تحمله هو أن نرى أبناءكم يساقون قهراً لمحاربتنا...»⁽¹⁾، ونحن أيضاً لا ننكر هذه الحقيقة التاريخية، لأننا نعلم حقيقة هذه المشاركة، وكيف سعت فرنسا دائماً وعلى عاداتها ضرب الشعوب الضعيفة بعضها ببعض، قتال الأخ لأخيه، وهذا ليس بغريب في سياسة فرنسا الاستعمارية التي عملت منذ أن وطأت أقدامها أرض شمال إفريقيا إلى تطبيق منهج تفتيت الأسرة والقبيلة، والأعراس، وغيرها.

ومما تحسن الإشارة إليه هنا أن بعض الشباب من الذين جندتهم فرنسا للقتال في المغرب الأقصى، فروا من الجيش الفرنسي وانضموا إلى الثورة، وقاتلوا مع إخوانهم الريافة بشجاعة وإخلاص، حيث يذكر الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي في الرسالة نفسها هذه الحقيقة، فيقول: «... لقد فر من الواجهة الفرنسية ملتجأ إلينا عدد غفير من أبنائكم الجنود والقواد وبادروا في الحين بالتطوع في جيوشنا وحاربوا ومازالوا يحاربون معنا الأعداء محاربة الأسود، إني اثني باسم الأمة الريفية على هؤلاء الأبطال مثال الهمة والشجاعة المحمدية...إننا لا ننكر ذلك حشا وكلا...»⁽²⁾، ويظهر من خلال ما تقدم من رسالة الخطابي أن الأطروحة التي يتغنى بها بعض الكتاب في اتهام المجندين من الشباب الجزائري في تلك الحرب، أصبحت باطلة فيما توفر لنا من دلائل.

ولا شك أيضاً أن الجزائريين الذين تعاطفوا مع المقاومة المغربية، دعموا إخوانهم في مقاومتهم للمحتل بما توفر لديهم من إمكانيات، حيث تشير بعض المصادر إلى ذلك، ومنها على سبيل المثال التقرير الصحفي الذي نشرته إحدى الصحف الفرنسية، عن شبكة تموين ثورة الريف، وفيه يشير صاحب التقرير إلى العثور على شحنة كبيرة من المواد الغذائية عثر عليها في مستودع بمنطقة العرائش بعضها من مدينة وهران، كانت موجهة إلى الثوار في الريف.

2.2 موقف النخبة الوطنية الجزائرية

تزامنت محنة المغرب ومقاومته الاحتلال الأجنبي، ظهور جيل من المثقفين الجزائريين، المتشبعين بالوعي الوطني المغاربي، حيث سجل هؤلاء حضوراً في الرأي والموقف، اتجاه ما عاشه إخوانهم من أحداث ومحطات، ومن الصفحات التضامنية المشرقة للطبقة الواعية، الموقف المشرف للأمير خالد الجزائري⁽³⁾، الذي قدم استقالته من الجيش الفرنسي بعد تلقيه رسائل من عمه الأمير عبد المالك يطلب منه عدم المشاركة مع الفرنسيين في حربهم ضد ثورة الريف، ولم يكتف الأمير خالد بذلك فقد وجه رسالة تأييد ونصرة، بمناسبة انعقاد أحد المؤتمرات التأسيسية لتنظيم سياسي - مغاربي - في أواخر سنة 1924م، ضمّ نشطاء سياسيين من الأقطار المغاربية جاء فيها «...أن العمال المغاربة لمعامل الناحية الباريسية المجتمعين بمؤتمرهم الأول في هذا اليوم التاريخي الموافق لـ 7 ديسمبر 1924 يهنئون إخوانهم المراكشيين وزعيمهم البطل عبد

¹ - محفوظ قداش- محمد قنانش- نجم الشمال الإفريقي 1937/1926- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر-(د.ط)- 2009-ص28.

² - نفس المصدر- ص 28.

³ - هو خالد بن الهاشمي بن الأمير عبد القادر الجزائري ولد في 20 فيفري 1875 بدمشق، عاد مع أسرته إلى الجزائر سنة 1892، دخل المدرسة العسكرية - سان سير - بباريس حيث تخرج منها برتبة ملازم ثم ترقى إلى رتبة نقيب سنة 1908 ثم استقال من الجيش الفرنسي ليلتحق بالنشاط السياسي سنة 1919، أسس جريدة الإقدام سنة 1924 ثم نفيه من طرف السلطات الفرنسية إلى سوريا حيث استقر هناك إلى أن توفي سنة 1936، للمزيد عن ترجمة الأمير. ينظر: بسام العسلي - الأمير خالد الهاشمي الجزائري- النفائس دار الراية- (د.ط)- 2010.

الكريم بانتصارهم على الاستعمار الاسباني ويصرحون بتضامنهم معهم في كل ما من شأنه أن يحرر بلادهم ويشاركونهم في الهتاف باستقلال الشعوب المضطهدة وسقوط الاستعمار...»⁽¹⁾، ولا شك أيضاً أنه عمل مع المهاجرين الجزائريين، تحت ستار التيار الشيوعي المعادي للإمبريالية للدعاية لصالح الثورة الريفية⁽²⁾.

هذا وكانت جريدة الإقدام الباريسية التي أسسها الأمير خالد صاحبة شعار من أجل الدفاع عن مسلمي إفريقيا الشمالية، تتابع في أعدادها باهتمام أخبار الثورة، ففي أحد أعدادها أصدرت بياناً وجهته إلى الشعوب المغاربية تدعوهم فيه إلى الوقوف مع الثورة الريفية في المغرب ضد القوات الفرنسية⁽³⁾. ونظراً لهذه المواقف الواضحة اتجه إخوانه المغاربة، فقد تعرض الأمير خالد إلى الكثير من المضايقات انتهت بنفيه في شهر جوان 1923م إلى مصر⁽⁴⁾، وأثناء إقامته بالإسكندرية اتصل الأمير خالد بالمهاجرين المغاربة، الذين كانوا يتابعون أخبار الثورة وأحداث المغرب العربي الكبير⁽⁵⁾، فاتهمه الفرنسيون بالتآمر على فرنسا، فقامت الشرطة الانجليزية بتفتيش بيته⁽⁶⁾.

ومن الصور المشرفة التي وقفها المثقفون الجزائريون من ثورة الريف، ما كان يكتبه هؤلاء عن أخبارها، لاسيما وأن الثورة كانت في وقت انفتاح فيه الجزائريون على الصحافة التي كان لها دور بارز في إيصال صدى هذه الثورة، فهي المنتقد تكتب في عددها الأول «... شاء الله عز وجل أن يبرز العدد الأول من جريدة المنتقد، ونار الحرب الريفية تشتعل لظاها ويستطير شررها وتشغل أنباؤها أسلاك البرق، وأكياس البريد، وتملؤ صفحات الجرائد والمجلات بالشرق والغرب...»⁽⁷⁾.

وكان صاحب المنتقد الشيخ عبد الحميد ابن باديس - رحمه الله - بقلمه مرافعاً مدافعاً عن الثورة الريفية في الجزائر، من خلال ما كان يكتبه من مقالات في الجرائد الوطنية، عن ثورة عبد الكريم الخطابي فقد كتب الإمام ابن باديس مقالا طويلاً في العدد الثالث من جريدة المنتقد عنوانه بالحرب الريفية، ومما جاء فيه، «... وفي المقابل من هذا تجد الأمير بن عبد الكريم رجلاً سياسياً كبيراً وهو من المتأدبين العصريين يفهم هذا كله وأكثر، ولكنه يعتقد أن اسبانيا لا قيمة لها أمامه وقد بطش بها بطشة كبرى بالأمس...»⁽⁸⁾، وكانت لمقالات ابن باديس رغم خطها الهادئ في تلك الفترة⁽⁹⁾ أثر قوي في نفوس القارئ الجزائريين والمغاربة عموماً.

1 - محفوظ قداش - محمد قناش - مصدر سابق - ص 28.

2 - Simone Pesquies - L'aéronautique militaire française dans la guerre du Rif- Revue de Nord- T72- N0 285- 1990- p 366.

3 - يوسف مناصرة - الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين العالميتين 1919/ 1945 - المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر - (د.ط) - 1988 - ص 74.

4 - عبد الرحمن بن إبراهيم بن العقون، الكفاح القومي والسياسي 1920/ 1936 - ج1 - منشورات الساتحي - الجزائر - ط2 - 2008 - ص 97.

5 - يوسف مناصرة - مرجع سابق - ص 59.

6 - غلال الفاسي - الحركات الاستقلالية في المغرب العربي - مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء - ط5 - 1983 - ص 13.

7 - الجزائري - الحرب الريفية - جريدة المنتقد - العدد 1 - الخميس 2 جويلية 1925.

8 - عبد الحميد بن باديس - الحرب الريفية - جريدة المنتقد - العدد 3 - 16 جويلية 1925.

9 - كان عبد الحميد بن باديس ينتقي الألفاظ والعبارات المناسبة قصد عدم إثارة السلطات الفرنسية ضد الجريدة، والتي قد تتعرض إلى التوقيف : ينظر ابراهيم عبد المؤمن - التوجهات الوحدوية في أدبيات

الحركة الوطنية المغاربية الجزائر أنموذجاً 1920/ 1954 - أطروحة دكتوراه في التاريخ - جامعة تلمسان - 2017 - ص 186.

هذا وكانت جريدة النجاح أيضاً تتابع أحداث حرب الرّيف، حيث كتب مديرها الشيخ عبد الحفيظ الهاشمي، وزميله الشيخ مامي إسماعيل، مقالات كثيرة، عن أخبار الثورة ومستجداتها، فهي الأخرى - النجاح - كانت تراقب، وتوثق لمراحل كفاح الريفيين في ثورتهم ضد الاحتلال.

كما كان لوقع حرب الرّيف، أثر عميق، في مشاعر رائد التّجديد والنّهضة الجزائرية، المفكر مالك بن نبي الذي كان يتابع باهتمام وإعجاب ما يديه المغاربة وزعيمهم الخطابي، من ضروب الشجاعة والإقدام، «... فالريفيون، كانوا أسوداً يكافحون وحشاً يفترسنا جميعاً...»، ويظهر أيضاً من خلال ما كتبه في مذكراته، أنه كان يتطلع إلى الالتحاق بالمغرب لمشاركة الريفيين حربهم ضد العدو الواحد، فرنسا طبعاً التي أرهقت عقول شباب المغرب العربي الباحثين عن التحرر، والانعتاق من نير الاستعمار.

أما مصالي الحاج ورغم ظهوره المتأخر بالنسبة للثورة الريفية، إلا أنه كتب موقفه بأحرفاً من ذهب في سجل التضامن الجزائري المغربي، وكان ذلك في أول ظهور له على مسرح الأحداث يوم 10 جويلية 1926، بباريس رفقة بعض الرفاق في النجم، بمناسبة احتجاجهم على تدشين مسجد باريس، حيث أصدر مصالي الحاج بياناً حمل توقيع، تضمن استنكار المحتجين على نفي الأمير خالد وسجن الأمير عبد الكريم الخطابي، «... والزعيم الجزائري الجليل الأمير خالد لم يزل مبعداً في منفاه، والبطل الإسلامي العظيم الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي قد زجّ به في المحجر، وهدد بالإبعاد من قبل دولة الفرنسيين التي خانته في الوعود المعطاة...»⁽¹⁾.

كان لتجربة الثورة الريفية نتائج عميقة على الطبقة المثقفة المغاربية، التي كان على عاتقها إيجاد أساليب جديدة في مقارعة الاستعمار، ففي الوقت الذي كانت فيه الثورة الريفية تلفظ آخر أنفاسها، كان بعض الشبان الجزائريين في المهجر، يعملون في هدوء على تلك الغاية، وما ظهور النجم الشمال الإفريقي، الذي عوض بنوره أفول نجم الثورة الريفية سنة 1927م، إلا مثلاً عن استمرار النضال في كفاح العدو بوسائل أخرى، وفي ذلك يقول مصالي الحاج، متأسفاً على نهاية الثورة الريفية متفائلاً بمستقل النجم «... يجب أن نلاحظ المصادفة المأساوية والسعيدة في نفس الوقت، وبالفعل فبالضبط في هذا الوقت الذي قام فيه الأمير عبد الكريم بمعركته الأخيرة على المستوى العسكري، ضد تحالف الإسبان والفرنسيين، في ذلك الوقت ولدت جمعية نجم شمال إفريقيا في أحياء باريس، أنه هنا شيء ملحوظاً حتى لا نقول ربانياً، هناك في كل هذا مصير من قدر الله، ويد الخالق في هذا الموضوع، "قال الأمير عبد القادر عندما يموت رجلٌ تحت رصاص العدو، ينهض آخر"، كأن نجم شمال إفريقيا قد أنشأ لاستئناف كفاح الأمير عبد القادر والأمير عبد الكريم...»⁽²⁾.

من الصّور التضامنية المعبرة أيضاً عن تعاطف الطبقة المثقفة، مع الثورة الريفية، ما كان يَظْمُهُ الشُّعراء من قصائد لإيقاظ النفوس، وشحذ الهمم، لملاقاة الأعداء، والصّبر عند المكاره، ومنهم نذكر الشاعر، مفدي زكرياء الذي أنشد قصيدة طويلة الذيل عنوانها (إلى الريفيين) ناهزت الستين بيتاً، والتي كتبها في تونس، وهو ما يزال طالباً في الزيتونة، إذ لم يتجاوز سبعة عشر رباعاً، وما جاء فيها :

أَجْرِيْلُ هَلَّلْ بِأَيِّ الظَّفَرِ وَكَبِرْ وَخُطِّ جَلِيلِ الْخَبْرِ
وَرَفَّ بِأَجْنِحَةِ النَّصْرِ فَوْقَ بَنَى الرِّيفِ حَوْلَ الْقِنَا الْمُشْتَجِرِ

¹ - محفوظ قداش، محمد قناش - مصدر سابق - ص 42. - أبو القاسم سعد الله - الحركة الوطنية الجزائرية - ج 2 - مرجع سابق - ص 380.

² - مصالي الحاج - مصدر سابق - ص 137.

سَلامٌ بنى الرِّيفَ - من مُهَج
هنيئاً بنى الرِّيفِ قد فُتِحَتْ
نضالاً نضالاً بنى الرِّيفِ عن
وكم فوقَ ذي الأرض من مُسلم
تَكَادَ تَطِيرُ ولا تَصْطَبِرُ
لَكُمْ جَنَّةُ الْخَلْدِ مَنْ يَبْتَدِرُ؟
ثُرَاثٌ لَكُمْ عَالِي الْمَدْحِ
لِنُصْرَتِكُمْ وَلَهُ مُنْتَظَرُ

ونستشف من خلال مضامين هذه القصيدة الطويلة، التي أنشدتها مفدي زكرياء، ذلك التعاطف والتآزر والتضامن، الذي حمله الجزائريون في قلوبهم وصدورهم، لإخوانهم المغاربة، فضلاً على التشجيع، والمساندة، التي تضمنتها هذه الرسالة التضامنية البليغة، فلا غريب إذ أصبحت حسب ما يذكر المؤرخ لحسن زغدي، نشيداً للمقاومة الريفية، ومما تجدر الإشارة إليه هنا أيضاً تلك الصّدف الجميلة، فحتى راية المقاومة كانت تحاك في الجزائر، حيث يذكر صاحب الظلّ الريف المؤرخ أحمد سيكرج، أن راية الريافة كانت تنسج في ورشة بمدينة تلمسان، من قبل الحاج المختار التلمساني.

2.3 موقف الشيوخ والوجهاء :

كان لمنابر المساجد ومحارب الزوايا في الجزائر، دورٌ فعالٌ في الحُصّ على نصرّة الإخوان، والتذكير بالجهاد، والدعوة إلى التآزر في حرب الأعداء، ومن الصّور التضامنية للعلماء الجزائريين، موقف شيخ الزاوية العلاوية⁽¹⁾ بمستغانم، الشيخ أحمد بن مصطفى بن عليوة المستغامي، الذي كانت له اتصالات دائمة مع قائد الثورة الريفية، ولعل ما يؤكد ذلك الرسائل التي تبادلها شيخ الزاوية مع الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، ففي رسالة مؤرخة ب 22 أفريل 1922 م، كتب هذا الأخير إلى الأول، رسالة يؤكد فيها ابن عبد الكريم أنه تلقى عدة رسائل من الشّيوخ ابن عليوة⁽²⁾.

هذا وتشير بعض التقارير الفرنسية أن زاوية الشيخ ابن عليوة أصبحت تمثل قاعدة خلفية لدعم الثورة في الرّيف المغربي، بحيث تبين إحدى مراسلات عامل عمالة وهران مع الحاكم العام بالجزائر، مؤرخة بتاريخ 20 أوت 1925 م، أن الزاوية العلاوية لها علاقة قوية بثورة الرّيف، وهذا مقتطف من نص الرسالة: «... لي عظيم الشرف أن أراسلكم بنص ترجمة الرسالة التي جاء بها أحد الأهالي من قبيلة القلايعة بالمغرب الأقصى إلى شيخ الزاوية العلاوية بمستغانم، هذه الرسالة تبين أن الشيخ ابن عليوة له عدد كبير من المريدين بالمغرب الأقصى، وبالخصوص في منطقة الريف إذ يحاول من خلال هذه الرسالة الحفاظ على علاقاته مع القبائل المنشقة، فمن الأفضل في هذه الظروف ممارسة رقابة شديدة على الزاوية وشيوخها ابن عليوة، وأن تترصد قوات الأمن السرية خطى كل ريفي يقدم إلى الجزائر لأن غالبية هؤلاء

¹ - يرتبط اسم الزاوية العلاوية بالشيخ محمد بن الحبيب البوزيدي، الملقب بالشيخ هو، الذي أخذ الطريقة عن الشيخ محمد بن قدور الوكيل الكركري، والسند الدرقاوي عن محمد بن عبد القادر الباشا عن الشيخ أبي يعزى المهاجي عن الشيخ العربي الدرقاوي، أما مؤسسها الحقيقي فهو الشيخ أحمد بن مصطفى عليوة. ينظر: مختار بونقاب- الطريقة العلاوية في كتابات الاستشرافية الفرنسية- مجلة الحوار المتوسطي- المجلد 1 العدد 1- 2010- ص 161- مارسيل كاري- ذكريات الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي- المطبعة العلوية- ط3- 1987.

² - علي بشير بلمهدي- علاقة الشيخ أحمد بن مصطفى بن عليوة شيخ الزاوية العلاوية بمستغانم بالشيخ محمد بن عبد الكريم الخطابي زعيم مقاومة الريف بالمغرب الأقصى من خلال ثلاثة وثائق، مجلة المواقف- العدد الأول- ديسمبر جانفي 2007- ص 106.- ينظر أيضاً الحواس منصور، ثورة الريف وأصدائها في الجزائر، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2012، ص ص 110 111.

مشكوك فيهم، وهذا حملهم رسائل من عبد الكريم الخطابي وبعض قادة الريف المغربي إلى الزاوية العلوية...»⁽¹⁾، كما أشار مصالي في مذكراته إلى متابعة مريدي الزاوية الهبرية الدرقاوية في تلمسان، أخبار الثورة في الريف⁽²⁾، ونقف من خلال ما تقدم على صور التضامن والتعاطف الذي أبداه شيوخ ومريدي الزوايا وأئمة المساجد اتجاه إخوانهم في المغرب.

ويخص النتائج المتحصل عليها من خلال الدراسة، بدءاً بتلخيص وتحليل المعطيات المتحصل عليها ذات الصلة بموضوع البحث، مع تقديم تفسير لها خاصة ما تعلق بالفرضيات المطروحة ومدى صحتها.

● خاتمة

بناء على كل ما تقدم نخلص إلى القول أنّ الجزائريين شاركوا بموقفهم اللاّمع صناعة صفحة خالدة، تضاف إلى رصيدهم الحافل بالمحطات التضامنية مع إخوانهم من شعوب المغرب العربي، حيث رأينا مواقفهم التي تلبدت بها سماء الجزائر وقتئذٍ، استنكاراً لغزو الصليبيين المغرب، كما تتبعنا تعلق خواطرهم بين الأمل والألم، اتجاه أخبار الحرب في المغرب، فاستبشروا خيراً بالمقاومة تحت لواء الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي بعد اندلاعها، ففرحوا بانتصاراتها، وحزنوا لانكساراتها، كما كان للطبقة المثقفة الواعية أيضاً مواقف مشرقة من المقاومة الريفية، حيث دشّن علماء الجزائر، وزعماء الحركة الوطنية الجزائرية، موقفهم تأييداً لقائد المقاومة الريفية.

ومهما كانت قيمة تجربة الريف، وموقف الجزائريين منها، فتبقى في تقديرنا إحدى الصفحات المشرقة في تاريخ التضامن الجزائري المغربي، والتي صنعت صوراً جميلة، عن لحمة الشعوب المغاربية، تلك الشعوب التي فتحت فيما بينها صفحات جديدة، من العمل المشترك، أين كان لقائد الثورة عبد الكريم الخطابي ورموز الحركة الوطنية المغاربية - الجزائرية، التونسية، المغربية - دورٌ متميز في تنشيط أجهزة التنسيق والعمل المشترك، من نجم شمال إفريقيا مروراً بمكتب المغرب العربي ولجنة تحرير المغرب العربي إلى ثورات التحرير المباركة، ثم الاستقلال.

¹ - علي بشير بلمهدي- مقال سابق- ص 107.

² - مصالي الحاج- مصدر سابق -ص 129.